كلامٌ عن مصر القديمة

بحناب المسيو جورج كاتسفليس

ان من طالع كتب المؤرخين الاقدمين وامعن في ما ذكروهُ عن حوادث مصر القديمة عرف انهم لم يلاحظوا ما نسقوا من الاخبار ولا عرفوا اسباب الوقائع والاحوال بل سطروا التواريخ قبل الوقوف على حقيقتها وجرّدوا للحوادث اسبابًا ما وقع في علمهم واخبارهم فجاروا عن معرفتها واذا اضطرّ رجال عصرنا الى البحث في تاريخ تلك العصور الأُول والتنقير والتدقيق في ما بقي مستترًا وراءه ظل القِدَم وتقلبات الايام وما برحوا يجدون في ذلك حتّى اوجدوا لنا من آثار تلك الادهار واخربتها ايات بيّنات وسورًا ناطقات وهاك بعض الكلام عما جاء في اقوال اشهرهم في هذا الموضوع وهي غاية ما وصل اليهِ بحثهم حتّى الآن فنقول

اتفق الذين بحثوا عن مصر وجعلوا تاريخها موضوع كتابتهم ان يبتدئوا بذكر النيل معتبرين معرفة امرهِ كقسم من تاريخ تلك البلاد ولذلك اجتهد المصريون منذ القِدَم في اكتشاف اصلهِ والوقوف على امرهِ على انهم لم يتوصلوا الى ما كانوا يرومون معرفتهُ ولا علم الناس حقيقتهُ الاَّ في ايامنا هذه فقد علم الآن انهُ يصدر من بحيرتين في اواسط افريقية ويسير نحو الشمال الغربي ثمّ الشرق ثمّ الشمال الشرقي حتّى الخرطوم حيث يلتقي بالنهر المعروف بالنيل الازرق . ويطلق على النيل في ابتداء سيرهِ اسم النيل الابيض ويُعرف الابيض والازرق باسم النيل من الخرطوم حتّى مصبهِ فالنيل الابيض اذًا هو النهر الاصلي وليس النيل الازرق الاَّ فرعًا منهُ خلافًا لما ظن الجغرافيون قبل الاكتشافات الحديثة . ولقد قيل ان ما يصبّهُ الازرق في الابيض من المياه في غير فصل الفيضان يقابل ما يفقدهُ الابيض بالاستغراق والتبخير من الخرطوم حتّى مصبهِ على ان كليهما يتساعدان على احياء البلاد المصريّة بحيث لو فصل الواحد منهما عن الاخر لامست مصر كالصحراء قفرًا بلقعًا فلو جرى الابيض قبل وصوله الى الخرطوم في غير مجراهُ وسار الازرق وحدهُ لجف ولو غُيّر مجرى الازرق لتعذر على النيل ان يفيض او لو فاض لعدمت البلاد نفع فيضانهِ لان الامطار التي تهطل صيفًا على جبال الحبشة تجرف الى النيل الازرق المادة الترابيّة التي يلقيها الفيضان كل سنة على اراضي مصر فلا خوف اذًا على البلاد المصريّة

الاَّ اذا غُسلت جبال الحبشة من تلك المادة على توالي السنين والدهور وهذا لايحدث الاَّ بعد ادهار طويلة

اما فيضان النيل فسبب عن الامطار الغزيرة التي تهطل على النيل الابيض من شهر فبراير (شباط) وعلى النيل الازرق من شهر مايو (ايار) الى سبتمبر (ايلول). ويصب النيل يوميًّا في البحر مائة وخمسين الفًا وخمسمائة وستة وستين مليونًا من الامتار المكعبة في حالته العاديَّة وسبعمائة وخمسة آلاف وخمسمائة واربعة عشر مليونًا في اعلى الفيضان ويبتدئ الفيضان في اواسط شهر يونيو (حزيران) ويبلغ منتصف ارتفاعه في اواسط اوغسطس (آب) ولا يزال ماؤه يتعالى حتَّى يبلغ اعلاه في اواخر سبتمبر ثمَّ يبقى على علو واحد نحو اسبوعين ثم يأخذ في الانخفاض حتَّى يبلغ اوطأه. وبعبارة اخرى يصل الفيضان الى القاهرة عند بلوغ الشمس الانقلاب الصيفي يبتدئ انخفاضه في الاعتدال الخريفي ويعود الى حالته العاديَّة في الانقلاب الشتوي

ولقد زعم بعض اهل البحث ان استقرار النتائج على وتيرة واحدة في ما خصَّ فيضان النيل منذ اصبحت مصر موضوعًا للملاحظات العلميَّة لا يلزم عنه انه لم يحدث في القِدَم بعض الخوارق فذهبوا الى ان تلك الخوارق ستحدث ثانيةً اذا دام العالم الوفًا من السنين فقال المؤرخ هيرودوطس انه قبلما زار بلاد مصر بتسعمائة سنة اي في القرن الرابع عشر قبل المسيح كان النيل يروي البلاد كلها حينما يعلو ثماني اذرع ولم يكن يرويها في ايامه الاَّ حينما يرتفع ست عشرة ذراعًا فاستنتج ان ارض مصر قد ارتفعت ثماني اذرع في تسعة قرون وانها سترتفع مع الزمان حتَّى يسمي النيل غير قادر على ريها وتبع البعض مذهب هيرودطس فزعموا انه لابدَّ ان يسمي النيل غير قادر على ري البلاد فتصير كالبطحراء والقفر المحيطين بها

فاستنتاج هيرودوطس لايكون فاسدًا ان كان الامر كما قال على ان بيِّنات هذا العصر تظهر ان ارض مصر ولئن كانت تعلو بسبب ما يلقي النيل عليها مدة فيضانه من المواد التي يحملها فهي على علوٍّ واحدٍ بالنسبة الى مياه النهر والسبب في ذلك ظاهر وهو ان ما يسبب علوّ الارض يسبب علوّ مجرى النهر ايضًا وحسبنا على ذلك برهانًا انَّ نتائج البحث عن امور النيل تظهر ان علوّ مياهه مدة فيضانه لم يزد قبل اليوم عن الدرجة التي بلغها ولا نقص عنها فقد قال هيرودوطس ان في ايامه كان النيل يعلو مدة فيضانه ست عشرة ذراعًا وقال المؤرخ عبد اللطيف البغدادي ان المعدل المتوسط لعلوّ النيل في

ايامهِ كان ست عشرة ذراعاً وقال المؤرخ ويلكنسون ان في ايامنا هذه يبلغ المعدل المتوسط لعلوّ مياه النيل مدة الفيضان اربعة وعشرين قدماً اي ست عشرة ذراعاً فلا خوف والحالة هذه ان يعجز النيل عن تعميم فيضانهِ والاصح ان هيرودوطس غلط بما قال وان ارتفاع المياه مقدار ثماني اذرع لم يكفِ في زمن من الازمنة لتعميم الفيضان على البلاد

ولقد اختلف الباحثون في امر مساحة مصر القديمة فقال البعض انها كانت في ايام الفراعنة اقل مساحة مما هي اليوم وزعم اخرون عكس ذلك فذهب علماء الفرنسيس الذين تفحصوا البلاد ان الشطوط تزيد مساحةً بما يصب النيل عندها من الرواسب واكدوا ان البحر كان يصل في القِدَم الى التلول التي بقرب الاهرام وان مصب النيل كان شمالي الاراضي التي ينبت فيها بعد ذلك مدينة منف حيث لم تزل في تلك الجهات آثار تدل على حضرد الشواطئ القديمة وقال المؤرخ ويلكنسون عكس ذلك فزعم ان البحر يتقدم على اليابسة وان المواد التي يلقيها النيل عند الشاطئ تكاد تقابل ما تفقد الشطوط بسبب تقدم البحر عليها وهو يظن ان النيل يصب اليوم في البحر حيثما كان يصب في ايام الفراعنة الاول وان مركز مدينة منف لم يزل كما كان قبلاً على بعدٍ واحد من الشاطئ وقد زعم المصريون والفول لكهنتهم ان في ايام الملك مينا كانت البلاد بحرًا حتى جهات مدينة منف فلا جرم انهم اخطأوا في ذلك لان مصر برزت الى الوجود قبل هذا الملك بل قبل ان وطئ اجدادهُ البلاد المصريَّة بقرون كثيرة

وقد اختلف الباحثون في بيان اصل المصريين الاقدمين فذهب ديودورس الصقلي الى انهم من اصلٍ افريقيٍّ سكن اولاً جهات الحبشة ثم تبع مجرى النيل فوصل الى القطر المصري وجاء على ذلك بادلة في جملتها ان مناهج الكتابة وقوانين مدارس الكهنة وألبسة المختصين لخدمة الآلهة وفروضهم كانت متشابهةً عند كلٍّ من المصريين والاحباش وتابع ديودورس كثيرٌ من قدماء المؤرخين وبعضٌ من المتاخرين على انهم ذهبوا في ذلك مذاهب شتى لا تتلاءم ولا تتقارب فتفرَّقت الآراء على انحاء متباينة ولم يكن العلم وقتئذٍ فيما خصَّ امور المصريين على درجةٍ تمكن من تصحيح خطائهم وما زال على ذلك الحال الى ان توصَّل رجال عصرنا الى قراءة الكتابة المصريَّة وفهم كلما ذُكِرَ فيها عن حوادث مصر القديمة فاتسع نطاق التاريخ وتسنى لنا من ثمَّ ايضاح كثير مما غمض عن يقين جازم

فاكثر اهل البحث في عصرنا هذا على ان الحقيقة غير ما زعم الاقدمون فقد قال الشهير برغش ما معناهُ " ان اثار المصريين يقرب عهدها كلما بعدت نحو الجنوب " وحسبنا

من ذلك ان الاهرام من اقدم آثارهم وان العارف اذا امعن النظر فيما بقي من تلك الآثار في بلاد الحبشة رأى انها بُنيت حين أخذ الفنّ المصري بالانحطاط وزد على ذلك ان درس الاجسام المنطقة قد اثبت ان لا مشابهة بين المصريين الاقدمين والجنس الافريقي كالبربرة والزنوج من حيث تركيب بنيتهم ونوع شعورهم وندبة معانيهم ولا مشابهة بينهم ايضًا من حيث لغتهم فاللغة المصريّة تشبه اللغات الساميّة في ضمائرها وبعض حروفها كحروف الجرّ وغيرها واكثر مناهج اللغات الساميّة موجود في اللغة المصريّة فينتج مما سبق ذكرهُ ان اصل المصريين ليس بافريقي بل هو آسيّ ساميّ غير انهُ لا يمكن في حالة العلم الراهنة بيان كيفيّة تفرّعهم من الشعوب الساميّة فعلى المستقبل كشف تلك الغوامض

وكانت مصر في القِدَم منقسمة الى اقطار شتى كان كلٌّ منها نوعًا من مملكة مستقلة ذات دين وشرائع مختصّة بها واوّل من شرع في جعل تلك الاقطار ولايات خاضعة لدول الزراعة انما هو الملك مينا على ان خضوعها لم يؤثر في تقسيمها بل بقيت على حالها من حيث حدودها الجغرافية وهي تُعرَف باسم نوم المعطى لها من اليونان فيما بعد وكانت النوم او الولايات ذات سعة ضيقة النطاق اذ ان اكبرها اصغر من احد الويتنا الحاليّة وكان منصب الولاية ارثيًا في بعض الاحيان وانتخابيًا في غيرها وكانت الولايات تدفع للملك وتوظيفهِ جزيةً مناسبة لثروة اهاليها الخاضعين للخدمة العسكريّة وللتسخير بالاشغال ذات المنافع العموميّة كبناء قلعة او تخطيط طريق او رفع سدّ او حفر ترعة وهلم جرًّا. وكان يجاور المصريين غربًا قوم اطلق اليونان عليهم فيما بعد اسم ليبيين وعلى بلادهم اسم ليبيا وقد ذكر بعض المؤرخين ان اصلهم من شمالي اوربا وانهم توصّلوا الى بلادهم المذكورة من جهة ايتاليا واسبانيا والآثار المصريّة تدل انهم كانوا بيض الالوان زرق العيون شقر الشعور وكانت بلادهم متسعةً على ان ارضها القاحلة لم تكن صالحة لعول امة كبيرة الامر الذي كان سببًا لحروب دائمة بين اهاليها فلم يكن يخشى على مصر منها الاّ اذا اتحّد سكانها كما وقع لهم ذلك مرّة

وكان من جهة الجنوب بلاد تُعرف عند المصريين باسم كيش او كوش وعند اليونان والرومان فيما بعد باسم انيوبيا وتعرف اليوم ببلاد النوبة والحبشة وهي بلاد فسيحة خصبة كان ملوك مصر على حذَرٍ دائم منها على ان بين مصر والبلاد المسكونة منها قفرًا يزيد طوله على اربع مئة ميل لم يكن للانيوبيين بدٌّ من الاجتياز بهِ اذ لو تبعوا مجرى النيل ازداد البعد مسافات ولذلك يمكن ان يقال ان هذا الحاجز الطبيعي وقى المصريين

هجمات الاحباش الا في ما ندر كما يتضح ذلك جليًا للواقف على تاريخ تلك البلاد . على انهُ لا يمكن النظر لكل قفرٍ كحاجزٍ طبيعي لهجمات الاعداء فالقفر الفاصل بين مصر وسورية لم يكن في زمنٍ من الازمنة مانعًا لهجمات الآسيين بل كان طريقًا لعساكر الرعاة والاشوريين والبابليين والفرس وغيرهم من الشعوب الغابرين ولذلك يرى الباحث ان تاريخ مصر متعلق بتاريخ الشعوب الآسيين حتّى ان من طلب الوقوف على حوادث احدى تلك الممالك وجب عليهِ ان يعرف عن الاخرى معرفةً جغرافيةً وسياسية كافية

تعاون الحيوان

اوردنا في الجزء الاول من هذه السنة مقالةً في هذا الموضوع ذكرنا فيها طرفًا مما يعلم من طُرُق التعاون بين طوائف الحيوان وتجنيهِ في حفظ انواعهِ وارتقائها وقد عثرنا الآن على حقائق اخرى بقلم البرنس كروبتكن الروسي فاقتطفنا منها ما يلي

ان الذين يسكنون سواحل بلاد الشام قد رأوا عصائب الطير تقطع فوق بلادهم شمالاً او جنوبًا حسب فصول السنة وتسدّ الفضاء بكثرة عددها . ويظهر بالاستقراء ان الطيور القواطع ترحل من كل البلدان الجنوبيّة الى شمالي اسيا واوربا واميركا حينما يقبل فصل الصيف وتقيم هناك تتوالد وتتكاثر الى الانقلاب الخريفي فتعود ثانية الى البلدان الجنوبيّة لتقيم فيها فصل الشتاء . ومعلوم ان بقعة واحدة من البقاع لا تحتمل الاّ عددًا قليلاً من الطير فاذا قطعت طيورها وحدها كانت سربًا صغيرًا لا يقوى على مهاجمة الاعداء ومغالبة الحوادث ولذلك لا تطير وحدها بل تجتمع في بقعة مخصوصة وينتظر بعضها بعضًا عدة ايام وهي تمرّن نفسها على الطيران وكأنها تتداول في امر السفر وتعدّ نفسها لهُ حتّى اذا تكامل عددها اطلقت اعنتها للهواء وصغارها بجانب كبارها لتتعاون وتتآزر . وقد قيل ان الكبار تحمل الصغار وهي قاطعة فوق البحر المتوسط واثبت بعضهم انهُ رأى القنابر طائرة مع السمّن والسمّن يعاونها على الطيران اذا شقت المسافة

والحيوانات اللبونة تتعاون ايضًا ولو كانت من الضواري وشاهد ذلك الذئاب التي قلّما تشاهد في البلدان الشماليّة الاّ متأجلة آجالاً وكثيرًا ما تجتمع حول الفرس او الثور في نصف دائرة وتهاجمهُ على هذه الصورة وتفتك بهِ وهي لو جاءته مفردةً لما سلمت منهُ الاّ ان